أحاديث

الأخ عصام العطار

أردت أن أجدد العهد بـ (همنغواي) فأعدت قراءة (الشيخ والبحر) وقضيت مع بطل القصة ، الصياد الهرم الفقـــير ساعة ممتعة ملهمِة ..

لقد خرج بقاربه إلى البحر قبل انبلاج الفجر ، بعد أربعة وثمانين يوماً لم يصطد فيها شيئا .. وأبعد في المسير حتى غاب عن عينه الشاطئ وتوارت عنه أنوار الزوارق ، وبلغ حيث لم يفكر من رفاقه أحد .. واحتمل صـــابراً بـــرودة الليل ، وحر النهار .. وأكَلَ السمك نيئاً بلا ملح ولا حمض ، وشرب دون الكفاية من الماء .. ولم يغمض له جفن .. حتى ظفر بتلك السمكة الضخمة التي لم ير مثلها ولم يسمع به ، بعد ليالي وأيام ، وكفاح مرير ، دميت فيه يـــداه ، وتَحَزَّز ظهره ومنكباه ، وتشنجت ذراعه ، وخدر جسمه ، وأشرف على الهلاك .. واستغنى في سبيله عما أتيح له من الصيد ..

وفي طريق عودته إلى الشاطئ ممتلئ الصدر بالأمل ، مترعَ القلب بالسرور ، منسرحَ الفكر إلى المال والـــذِّكر .. هاجمته (أقراش البحر) تنهش سمكته الغالية ، ورجاءه الحلو ، وكنـــزه المادي والمعنوي ، في بُهْرة النور وتحت ســـتار الظلام ..

ودافع الصياد العجوز أشدَّ دفاع ، وبذل أكبر جهد ، واستنفد كل ما تبقى في جسده المهدم من قوة .. وأضـــاع في الصراع حباله ، و(حربونه) ، وسكينه ، وهراوته ، ومقبض السكان .. ولكن هيهات ! هيهـــات ! .. ذهبـــت السمكة ، ولم يبق معه عندما وصل إلى الشاطئ إلاّ الهيكل العظمي ..

لقد خرج إلى البحر صفر اليدين ، وعاد من البحر كما خرج ، صفر اليدين ..

ولم يكن ما أحرزه من الصيد ، وحلم به من الكسب والمجد .. إلاّ برقاً أومض وانطفأ وخلف بعده الظلمات ..

لم يبق له إلاّ شيء واحد ، هو ما حققه في نفسه من بطولة ، وضربه من مثل رائع للأمل المتجـــدد ، والمحاولـــة المتكررة ، والكفاح الدائم ، والشجاعة في مواجهة المصاعب ، والتأبّي على الهزيمة عندما تنغلق في الوجـــه أبـــواب النجاح .

إنّ قيمة الأشياء الخارجية بمقدار ما تفجر من طاقة الإنسان ، وتمكنه من القيام بالواجب ، واستكمال الفــضائل والسمو إلى فوق .. والاستفادة الكاملة من الحياة في تحقيق غاية الحياة ..

أما هي نفسها فلا دوام لها .. سراب خدّاع أو واقع موقوت مصيره الزوال .

لقد قرأت كثيراً من كتب التاريخ ، ورافقت على الصحائف العجيبة دُوَلاً في نشأتها ووثبتها ، وازدهار مدنيتــها وحضارتها .. وشهدت إمبراطوريات في أوج العظمة وغاية التوسع .. وأنظر الآن فلا أرى من بعض هــذه الــدول القديمة والإمبراطوريات الكبيرة إلاّ بقايا ضئيلة ، أو آثاراً قليلة في متون الأرض أو بطون الكتب أو أبهاء المتــاحف .. ولا أكاد أبصر من بعضها الآخر شيئا ..

كم إنسان يا ترى عمل في تشييد تلك الصروح ؟

كم شخص شقي في إقامة تلك الدول ؟

كم رجل أو امرأة أو شيخ أو طفل مات في الدفاع عنها ، أو الحرب في سبيلها ..

لقد انهدم ما بنوا ، وذهب ما ضحّوا لأجله ، وما استنفدوا حياتهم فيه .. بادت النتائج الخارجية المباشرة و لم يبق إلاّ الموقف النبيل أو الحقير ، والعمل الصالح أو الطالح ، والدافع الطيب أو الخبيث والثواب أو العقاب عنــد الله عــزَّ وجلّ .. وهو الأخلد والأهم .

أعرف ناساً تسنَّموا الذرى العاليات ، ودان لهم العصر ، وكان لهم النصر .. لأنهم لم يقيدوا أنفــسهم بمبــدأ أو خلق ، و لم يقفوا عند حلال أو حرام ، وأعرف آخرين خسروا المعركة لأنهم لم يبرروا بالغاية الواسطة ، و لم يــشتروا النجاح بالتنكر للمبدأ والخلق ..

أفنعتبر النتائج القريبة وحدها إذن ؟! .. كلا ..

لقد قتل الحسين بن علي وظفر بالخلافة يزيد ، وغلب الطغيان والفساد في كثير من العهود !! ..

إنّ الفوز الحقيقي للإنسان أن يكون دوماً مع الحق وأن ينهض أبداً بالواجب ، وألا يدَّخر وسعاً في العمل ..

وليس على الزرّاع الذي يشق الأرض ويلقي الحب ويتعهد الغرس ملام إذا لم يجنِ حصيلة الجهد .. حسبه الرغبة النبيلة والكفاح الشريف .

إنّ علينا أن نجاهد بإخلاص ووعي ودأب ، وليس علينا ولا هو في يدنا أن نقتطف الثمار .